الفصل السادس

الطبيعية الأخلاقية

الفصل السادس

الطبيعية الأخلاقية(*)

إلى أى حد يمكن القول بأن هناك طبيعيًة أخلاقيًة فى فلسفة القيم عند برتراند رسل؟؟ وهل يمكن اعتبار الطبيعية الأخلاقية النموذج الأخير لتطور رسل الأخلاقى؟؟ أم الطبيعية الأخلاقية ما هى إلا امتداد للنظرية الانفعالية التى تبناها فى فلسفته؟؟ و إذا كانت هناك طبيعية أخلاقية بالفعل فهل يجوز القول بوجود موضوعية أخلاقية فى نظرية القيمة؟؟

إن الإجابة على التساؤلات السابقة ليس بالأمر اليسير مادام البحث حول فيلسوفٍ كاد يكمل بعمره القرن من الزمان، تبنى خلاله العديد من الاتجاهات الفلسفية المختلفة، لذا وجب على كل باحث فى فلسفة القيم عند رسل أن يرجع إلى تاريخ نشره لكتاباته، حتى يتسنى له معرفة توجهاته الفكرية.

يحاول رسل فى «مجتمعه البشرى» أن يوضح للقارىء الغرض الذى كان لأجله الكتاب، وهو «عرض نظام أخلاقى Ethics غير جامد، وكذلك تطبيق هذا النظام الأخلاقى على مختلف المشاكل السياسية الجارية، وأمله فى ذلك أن يعمل هذا الكتاب الذى يهتم من أوله إلى آخره

(*) يمكن القول (وقد يكون حقًا بالفعل) أن المرحلة الأخيرة من فكر رسل الأخلاقى هى كتابه «المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة» الصادر عام 1954م، أما لو قلنا بأن المرحلة الأخيرة من نظرياته الأخلاقية هى التى يطلق عليها «الطبيعية الأخلاقية» كما نجدها عند «جون ديوى» و«جورج سانتيانا» و«كلارنس إرفنج لويس» فقد لا نجانب الصواب حقيقة، وذلك لأن رسل لم يصرح حقيقة بوجود طبيعية أخلاقية أصيلة Intrinsic، بينما جاءت طبيعيته الأخلاقية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنظريته العاطفية فى الأخلاق، فرسل فى كتابه هذا يحاول أن يصل إلى أكبر قدر من الكلية والشمول، كما يتسنى ذلك للفلسفات العلمية أو الواقعية التجريبية... المؤلف.

بالانفعالات الإنسانية وأثرها فى مصير البشرية، على إزالة سوء الفهم، ليس لما كتبه رسل فقط، بل لكل ما كتبوه الكتاب الذين يتفق معهم فى الخطوط العريضة، وكذلك أن يزيل كتابه هذا سوء الفهم الذى ظنه نقاده فى كونه لا يؤمن بموضوعية الأحكام الأخلاقية»[1].

يتضح من النص السابق أن رسل يحاول أن يجد مبررًا للموضوعية فى الأحكام الأخلاقية، ولا يتسنى له ذلك إلا من خلال تطبيقه لنظريته الأخلاقية، على مشاكل الحياة السياسة، فهو يحاول أن يربط بين الأخلاق والسياسة، حيث يرى أنه إذا كانت الأفكار السياسية political Ideals يجب أن تكونَ مبنيَّة على أساس من الحياة الفردية، فإن هدفَ السياسةِ ينبغى أن يحققَ للأفراد حياةً خيرةً Good Life وحياةً ممكنةً[2].

وقد أكد على ذلك برتراند رسل فى كتابه «برتراند رسل يتحدث عن نفسه» Bertrand Russell Speaks his mind، والذى يمثل محاورة رائعة بين رسل والمتسائل، فعندما سئل رسل «إذا لم تكن تؤمن بالدين، وإنك لكذلك! فهل هناك من نظام أخلاقى تؤمن به؟؟»

أجاب رسل: «أجل، ولكن من الصعب جدًا فصل الأخلاق كلَّ الفصل عن السياسة. فالأخلاقية، فيما يخيل إلي، تظهر على هذا الشكل. رجل يميل إلى عمل شيء يفيده، ولكنه يضر غيره، فإذا أضر بكثير من جيرانه، اجتمعوا وقالوا: «»إننا لا نحب هذا على الإطلاق، فلنعمل على أن لا يفيد منه.» هذا ما يقودنا إلى القانون الجزائى، وهو جد عقلى، وتعتمد هذه الطريقة على انسجام المصلحة العامة مع المصلحة الخاصة»[3].

قد تكون المصلحة العامة التى يريدها رسل فى فلسفته الأخلاقية، هى القنطرة الأساسية فى تحوله من النظرية الانفعالية إلى الطبيعية الأخلاقية، أى تحول من الذاتية إلى الشمول، أو

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص3.

(2) B. Russell: Political Ideals, The Century Co, New York, 1917, p.4.

(3) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، ترجمة: شفيق الأرناؤوط، منشورات دار الإتحاد، بيروت، د.ت، ص ص56-55. (ولكن الباحث لا يرى أى مبرر من خلال فصول هذا الكتاب، فى أن يقوم المترجم بترجمة عنوانه إلى هذا العنوان «العالم فى مفهوم برتراند رسل» مع العلم أن الطبعة الأصلية لهذا النص الإنجليزى كانت عام 1962م، وكانت تحت عنوان Bertrand Russell Speaks his mind والكتاب عبارة عن محاورة).

ما هو كلى. فالنظرة إلى العالم كما يراها رسل يتم استنباطها من خلال هذه الفلسفة المشتقة من الأفكار الأخلاقية Ethical Notions ولكن هذه النظرة كما يراها فيلسوفنا ليست نظرة جزئية، كما أنها ليست علمية بشكل كلى[1].

إن هذه النظرة الأخلاقية المقدمة نحو تفسير العالم، لا تخلو بأى حال من الدوافع أو الشعور، ولكن هذه الدوافع ليست بحال من الأحوال انفعالية مبنية على الرغبة الذاتية، كما كانت فى نظريته العاطفية السابقة الذكر، فالعالم هنا يختلف فيما يقول رسل «فالعالم الذى أصبو لرؤيته - على حد تعبير رسل- هو العالم الذى تكون فيه العواطف قوية ولكنها ليست مدمرة، عالم نعترف فيه بوجودها فلا تقودنا إلى خداع أنفسنا أو خداع الآخرين، ومثل هذا العالم سيضمن الحب والصداقة وطلب الفن والمعرفة»[2]. فالذى يشغلنى الآن على حد تعبير فيلسوفنا - هو محاولة عرض أخلاق تستند إلى تبرير عقلى[3].

ولذلك أكد رسل على أن الأخلاق هى فى الأصل فن التوجيه The Art of Recommending نحو الآخرين للتضحية بالتعاون مع الذات، وبالتالى تكون الأخلاق بمثابة نتاج لهذا الانعكاس الذى يأتينا من خلال عملية العدالة الاجتماعية Social Justice، ولكن هذه الأخلاق على الرغم من تضحيتها الشخصية، إلا أنها تعود لتكون ذاتية الطابع بدرجة تزيد أو تقل[4].

وهنا يحاول رسل صياغة بعض الأسئلة التى يراها مهمة فى مجال النظرية الأخلاقية، وهذه الأسئلة تتضمن فى ثناياها التحول الأكيد من النزعة الذاتية للرغبة الانفعالية إلى ما يمكن وصفه بصواب وخطأ الفعل الأخلاقى، الذى هو مجال الطبيعية القيمية، فكما يقول رسل: «إذا اعترفنا بالأهمية الأساسية للمشاعر والرغبات فى ميدان الأخلاق يبقى أمامنا أن نجيب على هذا السؤال: هل هناك ما يسمى بالمعرفة الأخلاقية أم لا؟؟ إن عبارة «لا تقتل» صيغة أمر، ولكن عبارة «القتل شر» تبدو بيانًا لواقعة، كما أنهَّا تقرر شيئًا قد يكون خطأً أو صوابًا. وكذلك عبارة: «وددت لو أن الناس كلهم كانوا سعداء» هى عبارة مكتوبة فى صيغة التمنى،

(1) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.109.

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص7.

(3) المصدر السابق: ص23.

(4) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.108.

ولكن عبارة «السعادة خير» عبارة مصاغة فى نفس القالب اللغوى الذى صيغت فيه عبارة إنما «سقراط إنسان»[1].

وهنا يتساءل فيلسوفنا، هل هذا القالب اللغوى مضلل (أى القالب الذى صيغت فيه العبارة الثانية وهى «السعادة خير»)، أم أن هناك صوابًا وخطأً فى الأخلاق كما فى العلوم؟؟ فلو قلت مثلاً: «إن نيرون كان رجلاً شريرًا» فهل أنا أعطى معلومات كما يجب أن يكون الحال عندما أقول: «إن نيرون كان إمبراطورًا رومانيًا» أم أن ما أقوله يكون أكثر دقة لو عبرت عنه بالكلمات: «نيرون: ألا سحقًا له!»؟ يرى رسل: «أن هذا السؤال ليس سهلاً، ولا أعتقد أن أية إجابة بسيطة له ممكنة»[2].

فعندما يقول شخص ما: أن المنضدة بنية اللون the table is brown أو يقول: «أن المنضدة أمام الكرسى» هذا هو ما يعتقده رسل فى كون الموضوعات الفيزيقية من قبيل المناضد والكراسى ينبغى أن تظهر بهذا الشكل لتمثل تراكيب من معطيات الحس sense data، وبذلك يستطيع شخص ما فى أن يفسر نظرية التراكيب المنطقية ليغطى بها موضوعات النظرية الأخلاقية[3]. بمعنى أنه ينبغى علينا أن نبحث تعريف القيمة بنفس الأسلوب الذى نبحث فيه عن تعريف الأوصاف Descriptions فالتعريف هو الذى يحدد معنى القضايا propositions سواءً فى تعبيراتها الرمزية أو اللفظية، فالكلمات والرموز تعد تمثيلاً واضحًا للقيم[4].

وهنا يقرر رسل أنه ما دامت الآمال والرغبات عنصرًا أساسيًا فى الأخلاق فإن كل شىء فى الأخلاق لابد أن يكون «ذاتياً» حيث أن الآمال والرغبات ذاتية. بيد أن هذا الرأى ليس نهائيًا بالقدر الذى يبدو، فالوقائع العلمية مدركات حسية فردية، وهى أكثر «ذاتية» بكثير مما يفترضه الإدراك السليم، ومع ذلك فإن صرح العلوم الموضوعية الشامخ أقيم على أساس من هذه المدركات الحسية لدى الغالبية، إذ أن المدركات الحسية لدى المصابين بعمى الألوان والهذيان العقلى يمكن أن نتجاهلها. وقد تكون هناك طريقةٌ ما مماثلة لذلك يمكن بها الوصول

(1) المصدر السابق: ص18.

(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(3) John L. Mckenney: Concerning Russell`s Analysis of Value Judgments, op. cit, p.387.

(4) Ibid: p.387.

إلى الموضوعية فى الأخلاق، فإذا حدث ذلك، ما دام الأمر يعتمد على الغالبية، فإننا سننتقل من الأخلاق الذاتية إلى ميدان السياسة، وهو فى الواقع ميدان يصعب جداً فصله عن الأخلاق[1].

ويتفق هنا «جون ديوى» John Dewey (1859 - 1952) الذى أهتم بمشكلات القيمة خلال عمره الطويل، مع الفيلسوف محل الدراسة. فيرى «ديوى» أن نطاق مشكلة القيمة هو ما أطلق عليه الموقف الاجتماعى Social Situation، وهو موقف يشير إلى أن هناك تفاعلاً بين «بيئة ما» و«مجموعة من الأفراد» وقد يتسع نطاق هؤلاء بحيث يشمل المجتمع بأسره. كما يرى «ديوى» أن وجود «صراع» أو «تنافر» بين عناصر الموقف إنما يعد دلالة سيئة، ومن ثم فإن «الخير» هو «إعادة الإئتلاف أو الانسجام بين عناصر هذا الموقف»، ويتحقق هذا الإئتلاف من خلال «فض» أو «حل» كل مظاهر التنافر والقضاء على كل مصادر الصراع، وتحقيق الإئتلاف بين «الاهتمامات» و«المصالح» المتعارضة والمتنافرة[2]. ومن هنا كان تأكيد «ديوى» على فكرة أن الأخلاق اجتماعية Morality is Social[3].

وفى هذا الصدد رأى «جون ديوى» أن هناك حقيقتين مهمتين فى مجال الأخلاق الاجتماعية وهما: أن الحكم الخلقى Moral Judgment، والمسئولية الخلقية Moral Responsibility هما النتيجة الناجمة عن البيئة الاجتماعية، وهذا يؤكد على أن كل الأخلاق اجتماعية بالفعل، وذلك ليس لكوننا نأخذ فى الاعتبار تأثير أفعالنا فى إسعاد ورفاهية الآخرين، ولكن لكون الأخلاق هنا تعبر عن حقائق Facts[4].

لكن عندما تحدث «ديوى» عن «الإشباع» Satisfaction رآه «حالة متكاملة» وليس بـ«حالة ذهنية»، فيرى «ديوى» أن لهذا الإشباع «البعد الاجتماعى الأصيل»، ولهذا يختلف «ديوى» عن فيلسوف النظرية العامة للقيمة «رالف بارتون بيرى» من حيث أن «ديوى» لم يتصور «الاهتمام» فى حدود «النزوع الفردى»، وإنما «الاهتمام» عنده يتصف بنطاق أكثر رحابة وشمول، فهو «اهتمام اجتماعى». ولكن رغم اختلاف الاثنين «بيرى» و«ديوى»،

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص ص18-19.
(2) محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، مرجع سابق، ص96.
(3) John Dewey: Human Nature and Conduct, Henry Holt and Company, INC, 1944, p.315.
(4) Ibid: p.316.

فإنهما يتفقان فى تفضيلهما «المنهج السلوكى» فى معالجة مشاكل القيمة وقضاياها. ومن ثم فقد درأ الاثنان عن نفسيهما تهمة «الذاتية» فقد كانت نظرية القيمة بالنسبة للاثنين، مشروعًا أو برنامجًا علميًا وعمليًا فى آنٍ واحد[1]. وهذا بالتأكيد ما حاول رسل الوصول إليه، و إن كان أقرب إلى «ديوى» منه إلى «بيرى».

لقد رأى «بيرى» فى هذا الصدد أن الشيء - أى شيء له قيمة، أو يعتبر قيمًا فى المعنى الأصلى الجوهرى للمجتمع عندما يكون موضوع اهتمام أو نفع أو شغف من أى نوع. أو أى شيء هو موضوع اهتمام أو نفع، فهو من ثم قيم بذاته. ومن ثم تكون قيمة السلام هى الخصيصة التى تضفيها المصلحة إلى السلام بالنفع الذى ينطوى عليه، من حيث هو، أو لأى من صفاته وآثاره ومضامينه[2]. بل أن قيمة الشيء - فيما يقول «بيرى»- هى علاقة ذلك الشيء بفرد معين من أفراد الناس، ولو ترك الشيء وحده بدون إنسان لما كانت له قيمته، كذلك فالقيمة، إنما يخلعها الإنسان على الشيء بقدر ما يجد فيه من بواعث لاهتمامه، ومن إشباع لمصالحه[3]. فى حين أسرف « كلارنس إرفنج لويس» C. I. Lewis (1883 - 1964) حين أنزل التقييم الفلسفى إلى الخبرة الواقعية فى قوله «أن التقييمات Evaluations الفلسفية هى شكل من أشكال المعرفة التجريبية Empirical Knowledge، فليس هناك اختلافا جوهريًا فى صدقها أو خطأها، أو فى صلاحيتها أو تبريراتها عن باقى الأنواع الأخرى للمعرفة التجريبية»[4].

وتتأكد النزعة الطبيعية فى الأخلاق بالفعل عند الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» فهو يعد من أنصار الاتجاه الطبيعى فى القيم، وهو هنا لا يختلف عن «بيرى»، كما يتفق مع رسل فيلسوف الدراسة، وذلك على الرغم من اعتراف «سانتيانا» بأن رسل لم يستطع أن يرى

(1) محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، مرجع سابق، ص ص97-96.

(2) رالف بارتون بيرى: آفاق القيمة - دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة: عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة: محمد على العريان، تقديم هذه الطبعة: محمد مدين، المشروع القومى للترجمة، القاهرة، العدد 1774، 2011م، ص13.

(3) هنية مفتاح القماطى: نظرية القيمة عند كليرنس لويس، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى - ليبيا، 2001م، ص ص20-19.

(4) Clarence Irving Lewis: An Analysis of Knowledge and Valuation, Company, U. S. A, 1946, P. 365.

فى الطبيعة أى دعم عقلانى بالنسبة للأخلاقيات، لأنه على الرغم من توقفه على أن يكون رجلاً مسيحيًّا، فإنه ما زال ينتمى إلى قانون الكنيسة[1].

لقد بدت فلسفة سانتيانا أخلاقية بشكل جوهرى، وذلك من حيث قدرتها على الاهتمام، وأيضًا من خلال الاهتمام بالأوضاع الاجتماعية للحياة، وكذلك ظهور القيم، و إمكانيات السعادة[2]. وقد أكد سانتيانا على ذلك بقوله: «إن جل رسالتي الفلسفية هي كون الأخلاق والدين عبارة عن تعبيرات للطبيعة البشرية، حيث أن الطبيعة البشرية تأخذ شكل بيولوجي وحيوي، وأخيراً فإن هذه الروح المسحورة المفتونة والمعذبة متضمنة في تلك العملية الطبيعية، بل تطلب الروح أن يتم إنقاذها من الحياة»[3]. فالطبيعة هي قاعدة العقل وموضوعه، والعقل هو ضمير الطبيعة، ومن خلال رؤية الضمير متى كانت واضحة، فإن العقل أيضاً يكون بمثابة تبرير للطبيعة وهدفها[4].

و إذا كان سانتيانا يشير بصراحة إلى النزعة الطبيعية التي شكلت فلسفته الأخلاقية بشكل عام، فإن ذلك لم ينشأ عنده من فراغ خلقي، حيث أشار سانتيانا إلى حقيقة مهمة وهي لكى نأخذ في الاعتبار الفكرة الأخلاقية لدى أي فيلسوف، فلابد لهذه الفكرة أن تجيب على السؤالين التاليين:

أولاً: هل هذا الفيلسوف يشبه اسبينوزا في فهم و إدراك القاعدة الطبيعية للأخلاق أم أنه يضطرب و يؤمن بالخرافات في هذا الموضوع؟

ثانياً: كيف يكون هذا الفيلسوف في حسه الأخلاقي إنسانياً وممثلاً لمفهوم الخير؟[5]

لقد أكد سانتيانا على الطبيعية الأخلاقية التى تعود عنده بالضرورة إلى الفيلسوف البولندى «باروخ اسبينوزا» وهى بالفعل الفكرة نفسها التى تمسك بها برتراند رسل فى طبيعيته الأخلاقية،

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op.cit, P. 583.

(2) Baker Brownell: Santayana, the Man and the philosopher, in, The Philosophy of George Santayana , Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, p.36.

(3) G. Santayana: General Confession, in, The Philosophy of George Santayana , Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 23.

(4) G. Santayana: Reason in Common Sense, op.cit, p.205.

(5) G. Santayana: persons and places, op. cit, P. 245.

فاعتراف رسل بذلك يبدو واضحًا فى قوله: «أنا لا أنكر هذه الأهمية أو القيمة الكبرى التى تكون لهذه النوعية من الفلسفة فى إطار هذه الأفكار الأخلاقية، فعلى سبيل المثال، يعد العمل الأخلاقى الذى قدمه «اسبينوزا» بمثابة القيمة العظمى والأهمية الكبرى بالنسبة لى، وذلك على الرغم من كون التقييم فى تحليله الأخلاقى لا يمثل أية نظرية ميتافيزيقية عن طبيعة العالم فى نشأته، ولا يعطينا أى شيء يمكن أن يثبت بالحجة أو يفندها[1].

ومن خلال هذه المقارنات بين فلاسفة مختلفين لاتجاه واحد، أعود من حيث بدأت، ألا وهو تقرير وجود الطبيعية الأخلاقية كنظرية أخيرة فى فلسفة رسل القيمية، فيؤكد رسل هنا إلى أننا نصبح أقرب إلى اكتشاف نظام أخلاقى يحظى بقدر كبير من الموافقة العامة، وذلك إذا أخذنا «الخير» و«السيء» أو «الخير والشر» كمفهومين أساسيين مما نكون إذا أخذنا «الصواب» و«الخطأ». وذلك يعنى، أننا نعتبر أشياء بذاتها «خيرةً» وأشياء أخرى «سيئةً»، وأن كلا الأمرين مسألة درجة، فألم شديد مثلاً أسوأ من ألم طفيف، كما يعنى أن السلوك «الصائب» هو الذى يثبت أنه فى الغالب سينتج قدرًا من الخير أكبر مما ينشأ عنه من شر، أو ينشأ عنه قدرٌ من الشر أقل مما يترتب عليه من الخير، وأن الخيرَ والشرَ يعتبران متعادلين عندما يكون الشخص غير حافل بما إذا كان سيتعرض لهما معًا أو لا يتعرض لهما إطلاقًا، وأن الإلزام الخلقى تتضمنه القاعدة التى تقضى بأنه يجب على الإنسان أن يفعل «الخير»[2].

ويحاول رسل أن يصل إلى نتيجة محورية فى طبيعته الأخلاقية، فيقرر وجود «الرغبة» ولكنها ليست الرغبة الذاتية كما كانت عند أصحاب الوضعية المنطقية، بل رغبة شمولية من حيث الاهتمام، كما كانت بالفعل عند «ديوى» و«سانتيانا» و«بيرى»، فيخلص رسل من ذلك «بأنه يجب على أى تعريف «للخير» أن يدخل فيه عنصر الرغبة، بل اقترح أن الشيء يكون «خيرًا» إذا كان يشبع رغبة ما، أو لأكون أكثر تحديدًا، أن لنا أن نعرف «الخير» بـ«اشباع رغبة». ويكون الشيء «أحسن» من شيء آخر عندما يشبع رغبة أشد»[3].

وعندما أقول أن كلَّ إنسانٍ يسعى لاشباع رغباته هو، فأننى أعبر عن قضية أولية: أن كلَّ

(1) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.109.

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص ص41-40.

(3) المصدر السابق: ص46.

أفعالِنا، باستثناء الأفعال المنعكسة البحتة، إنما يوحى بها بالضرورة رغباتنا الشخصية. وهذا لا يعنى أننا أنانيون تمامًا فى تصرفاتنا، حيث أننا لسنا كذلك فى رغباتنا. فمعظم الناس ترغب السعادة لأولادها، وكثير منهم يرغبونها لأصدقائهم، وبعضهم لبلادهم، وقلة منهم يرغبونها للجنس البشرى كله[1].

والتأمين على الحياة يكشف لنا إلى أى حد تجاوزت رغبات الناس العاديين نطاق حياتهم الخاصة، إلا أنه بالرغم من أن رغباتى قد تكون غير أنانية، فإنها لابد أن تكون رغباتى أنا حتى تؤثر فى تصرفاتى[2]. بيد أن الطفل الكريم يراه رسل سببًا فى قدر من «الخير» أكثر من الطفل الأنانى، ويصور لنا هذا كيف أن بعض الرغبات تؤدى - أكثر من غيرها - إلى الخير العام[3].

ومن ثم فإن الخير Good أو القيمة Value تعرف بالرغبة Desire ولكن الرغبات هنا «ليست رغبات شخصية»، فهى رغبات «عامة»، بمعنى أنها رغبات الجنس البشرى» وذلك لأن الخير تصور اجتماعى وكلى وعام، وليس تصورًا «شخصيًا» أو «جزئيًا» وبالتالى فهو تصور «موضوعى» وليس تصورًا «ذاتيًا»[4]. فالقيمة الأصيلة معناها إشباع أعظم قدر من الرغبات الممكنة أو إشباع الرغبات «الجمعية» للبشر. ومن ثم فإن موضوع عبارة من قبيل «س خير على الأصالة» Intrinsically هو الاهتمام العام أو سعادة البشر أجمعين[5].

ومع ذلك فعبارة «الصواب هو أن تسعى لتحقيق الخير» وإن كان من الممكن اعتبارها تعريفًا لفظيًا لكلمة «الصواب»، إلا أنها شىء أكثر من ذلك، على الأقل فيما تتضمنه، أو تتضمن أن الأفعال التى تدعم «الخير العام» هى تلك التى يستحسنها المجتمع، أو على الأقل أن «الخير العام» ستدعمه هذه الأفعال إذا كانت موضع استحسان. وهى تعنى أو تتضمن أن مصلحة الجميع أن يتصرف كل شخص على هذا النسق، وهى تتضمن أن هناك قدرًا أكبر من «الخير»، أى قدرًا أكبر من إشباع الرغبات فى المجتمع إذا كان الضغط الاجتماعى فيه، سواء

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق: ص47.
(4) محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، مرجع سابق، ص114.
(5) المرجع السابق: نفس الصفحة.

كان عـن طريق القانون أو عن طريق الاستحسـان واللوم، يسـتعمل للحـث على فعل ما هو صائب بالمعنى السابق أكثر مما تستعمل بأية طريقة أخرى، ولكل هذه الأسباب كانت عبارة: أن الصواب هو السعى لتدعيم الإشباع العام للرغبات، عبارة لها أكثر من مجرد أهمية لفظية[1]. ولكـن هـذا القول يحتاج إلى شيء مـن التوضيح من خـلال بعض الأمثلة التى أكدها رسـل فى مجتمعه البشرى.

يرى رسـل «أنه عندما ينظر إلى الرغبات على أنها وسـائل يصبح الأمر مختلفًا تمامًا، فهناك أزواج مـن الرغبـات تتوافق وأخـرى لا تتوافق. فعندمـا يرغب رجل و إمـرأة فى الزواج من بعضهما يمكن هنا إشباع رغبتيهما، ولكن عندما يرغب رجلان فى زواج نفس المرأة، فإن أحدهما عـلى الأقل لابد أن يصاب بخيبة الأمل. وما ينطبق عـلى رغبتين ينطبق أيضًا على مجموعتين من الرغبات. و إنى أسـتعير تعبيرًا من تعبيرات «ليبنتز» فأسـمى تلـك المجموعة من الرغبات التى يمكن إشـباعها كلها فى نفس الوقت «متفقة الإمكان» compatible، وعندما لا تكون «متفقة الإمكان» أسميها «متعارضة» Incompatible وعلى ذلك، عندما يكون هناك شعبٌ ما مشتبكٌ فى حربٍ، فإن رغبات أفراده فى النصر تكون «متفقة الإمكان»، ولكنها تكون «متعارضة» مع رغبات أعدائهم المقابلة»[2].

وخلاصة القول، يؤكد رسـل أن إشـباع الرغبات يكون أكثر إذا كانت الرغبات «متفقةَ الإمـكانِ» منهـا إذا كانـت «متعارضـة». ومن ثـم فتبعًا لتعريفنـا «للخير» تكـون الرغبات «المتفقـة الإمكان» أفضل بوصفها وسـائلاً مـن «المتعارضة»، و يتبع ذلـك أن الحب أفضل من البغضاء، والتعاون أفضل من المنافسـة، والسـلام أفضل من الحرب، وهكذا. و يؤدى بنا ذلك - كما يقول رسل- إلى نظام أخلاقى يمكن تمييز الرغبات فيه بوصفها صوابًا أو خطأً، أو إذا تحدثنا بصفة عامة بوصفها خيرة أو سـيئة. فتكون الرغبات الصائبة هى تلك التى يمكن أن «تتفق فى الإمكان» مع أكثر عدد ممكن من الرغبات الأخرى، والرغبات الخطأ تكون تلك التى لا يمكن إشباعها إلا عن طريق كبت رغبات أخرى[3].

(1) برتراند رسل: المجتمع البشر فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص48.
(2) المصدر السابق: ص49.
(3) المصدر السابق: ص ص50-49.

تعقيب عام

يمكن القول أن الطبيعية الأخلاقية قد فشلت فى جعل الأحكام الأخلاقية أحكامًا واقعية، أى لها مثل ما للعلم من أحكام، ولكن الطبيعية الأخلاقية تختلف بالفعل عن الأحكام الفيزيقية التجريبية، وذلك لأن القيم ليس لها لونٌ، أو صوتٌ، وكذلك الخير ليس له طعم أو مذاق taste، كما أن العدالة injustice ليس لها رائحة[1].

(1) Ibid: p.385.